# المكان فضاءً سرديًا : دراسة في كتاب "البخلاء" للجاحظ

# The place is a narrative space:a study in Al-Jahiz`s Book of Misers

علي جهاد حمدون الحسيني
مدرس مساعد
ثانوية الزاوية للبنين

Ali Gihad Hamdoon Al-Husseiny
Assistant Lecturer
Al-Zawiya Secondary School for Boys

alawee.alawee1988@gmail.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٣/١/٢٥
تاريخ القبول ٢٠٢٣/٣/٢

الكلمات المفتاحية: السرد ، المكان ، الفضاء ، الجاحظ ، البخلاء

Keywords: narration , place , space , Al-jahiz , misers

## الملخص

تهدف الدراسة إلى الكشف عن المكان ضمن فضائية السرد، في كتاب البخلاء للجاحظ، ومدى حضوره، متجاوزاً الصورة الطبيعية للمكان وانفتاحه على عدة معانٍ ودلالات متغلغلة في كيان الإنسان؛ ليخضع بذلك إلى مشاعره الإنسانية وعواطفه الوجدانية، ليتحول في بعض الأحيان من مكانته الطبيعية إلى مكانته الإنسانية المؤثرة ضمن فضاء السرد، وقد اشتمل البحث على جانب نظري وآخر تطبيقي تحليلي وصفي على مجموعة من النماذج المختارة من قصص وأخبار وحكايات ونوادر وطرائف الجاحظ في كتابه البخلاء والتي اختصت بسرديات المائدة وأمكنتها.

## Abstract

The study aims to reveal the place within the narrative space in the misers book of Al-jahiz and the extent of his presence beyond the natural image of the place and its openness to several meanings and indication pervading the human being to submit to the feeling of humanity and his sentimental feelings to turn sometimes from his natural position to his human position influence within the narrative space the study was included one the theoretical side and the other practical descriptive analytics on a collection of selected from the stories of Al-jahiz in his misers which specializes in table narratives and enabled them.

**مدخل (جانب تنظيري):-**

يشكل المكان السردي العنصر المحوري الأساس- إلى جانب الزمن والرؤية- في مصطلح الفضاء السردي لأنه من دون حضور المكان لا يمكن للفضاء أن يتحقق، ويتجاوز المكان في هذا السياق المعنى الضيق المتعلّق بالصورة المكانية الطبيعية الذي يعد الموضع الذي تقع فيه الأحداث[١] منفتحاً على معانٍ ودلالات عديدة ذات طابع إنسانيّ ووجداني، فالمكان ضمن هذه الرؤية "لا يتوقف على المستوى الحسّي، وإنما يتغلغل عميقاً في الكائن الإنساني، حافراً مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة، ليصبح جزءاً صميمياً منها، وذلك لأن المكان هو الفسحة/الحيّز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم. من خلاله نتكلّم وعبره نرى العالم ونحكم على التي نتحصن بها في مواجهة الآخر"[٢]، ضمن حراك سردي عميق يتحرّك في أكثر من اتجاه وداخل أكثر من سياق يمنح المكان هذه الهيمنة شبه المطلقة على الأشياء.

يتحول عنصر المكان بذلك إلى كيان يخضع للمشاعر والعواطف واللقطات الوجدانية ذات الطبيعة الإنسانية الحرّة ويعمل على احتوائها وتكريس صورتها في الأشياء، بحيث تكون له صلة وثيقة وعميقة بالسرد في أشكاله الكثيرة التي تعتمد عليه اعتماداً مطلقاً، ولا سيما تلك التي تتعلق بالأخبار والحكايات التي تحملها كتب التراث العربي على سبيل المثال، ومنها كتاب "البخلاء" للجاحظ بما تنطوي عليه سرديات المائدة من تمثيلات مكانية عديدة ترفد المحكيات بكثير من الطرافة والتشخيص.

إن فاعلية تشخيص المكان في السرد عموماً هي التي تجعل من أحداثها بالنسبة للقارئ شيئاً محتمل الوقوع، بمعنى منفتح على الحال السردية يوهم بواقعيتها، فهو يقوم بالدور نفسه الذي يقوم به الديكور في الدراما، والخشبة في المسرح، وطبيعي إن أي حدث لا يمكن أن يتصوّر وقوعه إلا ضمن إطار مكاني[٣] معيّن يعطيه هويته داخل الفضاء السردي، ويسهم مع بقية عناصر الفضاء في تشكيل نوعي معيّن للنص السردي. فأي عمل حين يفتقد للمكان فهو بالأصل فاقد للخصوصية وللأصالة [٤] .

---

(١) ينظر : من المكان الى المكان الروائي ، خالد حسين حسين : ١٧٠ .

(٢) شعرية المكان في الرواية الجديدة -الخطاب الروائي لإدوارد الخراط أنموذجاً-، خالد حسين حسين : ٦٠.

(٣) ينظر :بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي :٣٣ .

(٤) ينظر : جماليات المكان ، جاستون باشلار ، ترجمة غالب هلسا : ٩ ، وينظر : بناء الرواية ، سيزا قاسم :٧٦ .

لا يمكن للراوي إذن أن يستكمل شروط رواية الخبر السردي بتفاصيله ومرفقاته وحيثياته وقضاياه من غير الاعتماد على أساس مكاني واضح وفاعل، لذلك فالراوي دائم الحاجة إلى التأطير المكاني[١] كي يكون بوسعه الاستمرار برواية الأحداث ووصف الشخصيات بطريقة أكثر حرية وعفوية وبساطة.

يستند الراوي في هذا المجال السردي إلى أرضية صالحة لتوفير فرص السرد ومنحها أكبر قدرة على التمظهر والسيرورة السردية، ضمن أفق عام يجعل من عنصر المكان محور العملية السردية وبؤرتها وميدانها الفاعل في أكثر من اتجاه، حيث يتحول إلى أداة فنية ذات طاقة جمالية لا يستغني عنها الراوي في إضفاء سمة النكهة الخاصة على مرويه، وذلك لبناء علاقة تقليدية وضرورية بين الراوي والمتلقي.

يستأثر المكان بصياغة الشكل السردي بجميع أشكاله التي تستجيب لنوع الحكاية وقيمتها ومقولتها وأطروحتها، حين يكون هو هدف النص السردي وغايته وجوهره الأساس، وعلى الرغم من أن المكان في هذا الإطار لا يفقد أبعاده الهندسية تماماً؛ إذ ترد تفاصيل شتى حوله بهذا الشأن، إلا أن مخيلة الفنان الراوي وذاته تنعكسان بالضرورة على المكان بتفاصيله وحيثياته فيبدو بظلال وألوان مضافة[٢]، ويسهم عميقاً في إنتاج الفضاء السردي الذي تقوم عليه حساسية النص السردي وقيمته الفنية والجمالية. فالمكان هنا من صنع لغة الكاتب منصاعاً لتخيلات النص السردي وحاجياته [٣]

لابدّ لعنصر المكان من وعي كبير لدى الراوي سواءً أكان راوياً ذاتياً أو مشاركاً أو كليّ العلم؛ كي تكون له قدرة ذات قوة سردية فاعلة "تتجاوز كونها الجامد المنفعل، وتنتقل إلى مسرح الفعل وتؤثر وتتأثر، وتشكّل وتضيف وتعدّل وتلغي وتخلق، ويكون ذلك على المستوى الشعوري النفسي أو على المستوى الوقائعي الحدثي"[٤]، فيعمل الراوي في هذه الحالة على التصرّف الصحيح بالمكان لخدمة "المروية" التي يسعى إلى توصيلها للمتلقي بأسلوب واضح وعمليّ، استناداً إلى جوهر المقولة السردية التي يحملها النص السردي ضمن رؤية المكان وفعاليته في دعم هذا التوصيل والتداول.

---

(١) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحمداني: ٦٥.

(٢) الأنثى ومرايا النص –مقاربة تأويلية لبلاغة الخطاب النسوي المعاصر–، وجدان الصائغ: ٢١١.

(٣) ينظر : بناء الرواية العربية السورية :٢٥١ .

(٤) مضمرات النص والخطاب، دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي، سليمان حسين: ٣٠٣.

يكون المكان بذلك –على المستوى السردي التشكيلي والتعبيري– أساساً نوعياً لخدمة النص السردي، وحضوره الاستثنائي المميز في الفضاء النصي العام حيث يكون له الدور الأبرز في صياغة الخبر أو الحكاية، ويسهم في تدعيم عناصر التشكيل الأخرى بما يقدّمه لها من أساس متين تستطيع من خلاله التحرّك بحرية على بساط السرد(١)

تحتشد حكايات البخل وأخبار البخلاء على مستوى سرديات المائدة في كتاب "البخلاء" للجاحظ بصور مكانية متعددة لا حصر لها، تجعل من "المائدة" بوصفها مكاناً يقع فيه الحدث السردي ميدانا فعليا يتحكّم في صياغة الخبر السردي من جهة، وبطريقة نقله إلى مجتمع التلقي من جهة أخرى، بحيث يرقى إلى مستوى الحادثة السردية ويليق بها ويستوعب حكمتها ومقولتها بكل ما ينطوي عليه من أفق سردي وفعالية سردية.

(١) ينظر : البناء الفني لرواية الحرب في العراق ، عبدالله ابراهيم : ١٢٧ .

## المبحث الأول

## مكان مسمّى (مجرد – حقيقي)

ويمكن تحليل مجموعة من النماذج التي أوردها الجاحظ لبخلائه تحوّل المائدة إلى مساحة لسرد الأخبار والحكايات، بطريقة تشكّل الفضاء السردي للنص من خلال قوة الحضور المكاني الأصيل والحيوي والنشيط في المشهد:

"**ورأيت أنا حمّارة منهم، زهاء خمسين رجلاً، يتغدون على مباقل بحضرة قرية الأعراب في طريق الكوفة، وهم حجاج. فلم أرَ من جميع الخمسين رجلَين يأكلان معاً، وهم في ذلك متقاربون يحدّث بعضهم بعضاً.**

**وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتّفق للناس**"(١)

يقدّم الراوي رؤيته عن طريق حضور "أنا" الراوي التي تتوجّه نحو استقصاء المشهد السردي في هذا الخبر "ورأيت أنا حمّارة منهم"، حيث يتحدّد العدد ونوعه الاحتمالي التقريبي "زهاء خمسين رجلاً" في صيغة عددية مناسبة لطبيعة الحدث، كي يحضر بعدها المكان بحدوده العامة "يتغدون على مباقل بحضرة قرية الأعراب في طريق الكوفة"، ومن ثمّ تحديد الجوّ والمناخ الصفة والهوية التي تتمتع بها الشخصيات "وهم حجاج" في هذه الصفة، وهي تحيل على رؤية معيّنة ذات طبيعة خاصة في الفضاء السردي.

تتحرك الصورة السردية للخبر على لسان الراوي بعد ذلك لتصوير المرئي الذي يتعلّق بحضور المائدة، وما يجري حولها من محكيات تحيل على الصفة المركزية الرئيسة في أطروحة الكتاب وهي "البخل"، فيكون المشهد "فلم أرَ من جميع الخمسين رجلَين يأكلان معاً" بصورة تجعل من المكان مقسّماً على عدد أفراد مجتمع الحكاية، على الرغم من أنّ المكان بوصفه عنصراً أساسياً من عناصر الفضاء يتشكل على وفق مجال محدد "وهم في ذلك متقاربون يحدّث بعضهم بعضاً."، ومن ثمّ يصل إلى جوهر المقولة السردية التي تتمثل بهذه الجملة بوصفها الخاتمة السردية "وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتّفق للناس"، حيث يقرر ما انفرز من هذه الحادثة السردية من غرابة تحيل على الظاهرة.

يبقى المكان هو العنصر الأول والحاسم في تشكيل الفضاء السردي من خلال حضوره بأشكال مختلفة حسب طبيعة النص السردي ومقولته، ففي أحد نصوص البخلاء ينقل الراوي حكاية تحيل على شكل من أشكال البخل الشديدة على هذا النحو:–

"**قال معبد: نزلنا دار الكندي أكثر من سنة. نروج له الكراء، ونقضي له الحوائج، ونفي له بالشرط، قلت: قد فهمتُ ترويج الكراء وقضاء الحوائج، فما معنى الوفاء بالشرط؟ قال: في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة، وبعر الشاة، ونشوار العلوفة، وألا لا يلقوا**

(١) البخلاء، الجاحظ، تحقيق : طه الحاجري : ١٨.

**عظمة، ولا يخرجوا كساحة، وأن يكون له نوى التمر، وقشور الرمان، والغَرفة من كل قِدر تطبخ للحبال في بيته، وكان في ذلك يتنزّل عليهم فكانوا لطيبه وإفراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك.**"(١)

إذ تحضر صورة المكان السردي بوصفها الصورة الحاوية للحكاية التي تجري في مساحة المكان السردية والدرامية في آن معاً، فـ"دار الكندي" هي المكان المعيّن الذي يستوعب الحدث السردي وحركة الشخصيات وجوهر المحكي، وهذا المكان يمثل البؤرة السردية التي يتشكل منها الفضاء السردي الذي يقدّم حكاية البخل مقترنة بتفاصيل أخرى، ضمن رؤية تصوّر شخصية البخيل من خلال مجموعة من الصفات التي تكون فيها صفة البخل هي الصفة المركزية، التي تغطي على بقية الصفات وتهيمن على صورة الشخصية.

لكنّ ثمة صفات أخرى على الطرف الآخر من القيمة الإنسانية للبخل تضفي على الشخصية ما يجعلها مقبولة، بحيث تتمكن هذه الصفات من معادلة صفة البخل في الشخصية داخل رؤية مكانية تصلح لبناء فضاء سردي مختلف، فلولا المكان بحضوره الحاوي للحدث لما كان باستطاعة الحدث أن يشكل الفضاء السردي وحده، بينما أسهم حضور المكان بهذه المركزية الواضحة والمؤثرة في المساعدة بتشكيل الفضاء من خلال الحدث والشخصيات وعناصر التشكيل السردي الأخرى.

تنطوي سرديات المائدة في كتاب البخلاء للجاحظ على مجموعة من الممارسات التي لها علاقة باستثمار حدود المكان، فالمكان في هذه الحالة هو مكان محدود يجب على المرء أن يستثمر ما يتيحه من إمكانات لتحقيق أفضل نتيجة، ففي أحد هذه النصوص يقوم الراوي بعرض الصورة المكانية في أوسع مجال سردي ممكن:-

"**وكان إذا كان يوم الرؤوس أقعد ابنه على الخوان إلا أن ذلك بعد تشرط طويل وبعد أن يقف به على ما يريده، وكان فيما يقول له: (إياك ونهم الصبيان وشره الزراع وأخلاق النوائح، ودع عنك خبط الملاحين والفعلة ونهش الإعراب والمهنة وكل من بين يديك، فإنما حظك الذي وقع وصار أقرب إليك، واعلم أنه إذا كان في الطعام شيء طريف ولقمة كريمة ومضغة شهية فإنما ذلك للشيخ المعظّم والصبي المدلل ولست واحداً منهما، فأنت قد تأتي الدعوات وتجيب الولائم وتدخل منازل الأخوان وعهدك باللحم قريب وأخوانك أشد قرماً إليه منك، وإنما هو رأس واحد فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتصيب بعضاً، وأنا بعد أكره لك الموالاة بين اللحم، فإن الله يبغض أهل البيت اللحمين. وكان عمر يقول: إياكم وهذه المجازر، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، وكان يقول: مدمن اللحم كمدمن الخمر.**

(١) البخلاء : ٨٢.

**وقال المسيح –وقد رأى رجلاً يأكل اللحم–: لحم يأكل لحماً أفّ لهذا عملاً، وذكر هرم بن قطبة اللحم فقال: وإنه ليقتل السباع، وقال المهلّب: لحم وارد على غير قرم وهنا الموت الأحمر، وقال الأول: أهلك الرجال الأحمران: اللحم والخمر، وأهلك النساء الأصفران: الذهب والزعفران."**(١)

ثمة مجموعة كبيرة من الوحدات المكانية التي تتعلق بعناصر التشكيل السردي الأخرى على نحو يبني صورة للفضاء السردي بشكل سليم، تبدأ من الجملة السردية القصدية على التركيز المكاني "وكان إذا كان يوم الرؤوس أقعد ابنه على الخوان إلا أن ذلك بعد تشرط طويل وبعد أن يقف به على ما يريده"، فإقعاد الابن على الخوان يعني الهيمنة على المكان الذي يتوقع وجود المائدة فيه كي يحصل على ما يريد، في ظلّ وصايا كثيرة لاستثمار المكان على أفضل صورة بعد أن يتشكل الفضاء السردي بالشكل المطلوب.

تبدأ بعد ذلك مجموعة الوصايا من الأب إلى الابن تتمحور حول الطريقة التي يمكن بها تحقيق أكبر فائدة من استغلال المساحة المكانية للمائدة "وكان فيما يقول له: (إياك ونهم الصبيان وشره الزراع وأخلاق النوائح، ودع عنك خبط الملاحين والفعلة ونهش الإعراب والمهنة وكل من بين يديك، فإنما حظك الذي وقع وصار أقرب إليك"، في دعوة لاستثمار ما هو متاح أمام الابن والتفكير فيما يمكنه الحصول عليه بأيسر السبل.

يستعرض الراوي في خضم انهماكه بتقديم الوصايا صورة المائدة في درجتها العليا التي لا تشمل ابنه "واعلم أنه إذا كان في الطعام شيء طريف ولقمة كريمة ومضغة شهية فإنما ذلك للشيخ المعظّم والصبي المدلل ولست واحداً منهما"، وتنطوي هذه المعلومة على تحديد المستوى المكاني للشخصية التي لا يمكن أن تحظى بأكثر مما هو مقدّر لها على نحو أو آخر "فأنت قد تأتي الدعوات وتجيب الولائم وتدخل منازل الأخوان وعهدك باللحم قريب وأخوانك أشد قرماً إليه منك، وإنما هو رأس واحد فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتصيب بعضاً"، ضمن وصية تحيل على الدعوة لاستثمار المكان أحسن استثمار.

ثم تأتي الوصية الأخرى التي لها علاقة بالمكان المجازي الذي يتعلّق بالجسد "وأنا بعد أكره لك الموالاة بين اللحم، فإن الله يبغض أهل البيت اللحمين."، لأن الهيمنة على مكان المائدة يحتاج إلى سردية دقيقة تفرّق بين سبيل وسبيل على مستوى التفاعل مع مفردات المائدة، ولا سيما أن جوهر هذه المائدة هو اللحم.

تنتهي الوصايا في استدعاء لمقولة عمر في هذا الميدان "وكان عمر يقول: إياكم وهذه المجازر، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، وكان يقول: مدمن اللحم كمدمن الخمر"، ومن ثمّ مقولة السيد المسيح "وقال المسيح –وقد رأى رجلاً يأكل اللحم–: لحم يأكل لحماً أفّ لهذا

(١) البخلاء : ١١١.

عملاً"، حيث يتحول اللحم في هذه المقولات إلى فضاء مكاني شامل ينطوي على مساحة سردية لا تتلاءم مع الحس الإنساني المرهف.

ينفتح الفضاء السردي في الحكاية على مقولات أخرى تصف اللحم بأنه يعكس على نحو ما صورة الموت بوصفها مكاناً آخر يستعمل للتهديد "وذكر هرم بن قطبة اللحم فقال: وإنه ليقتل السباع، وقال المهلّب: لحم وارد على غير قرم وهنا الموت الأحمر، وقال الأول: أهلك الرجال الأحمران: اللحم والخمر، وأهلك النساء الأصفران: الذهب والزعفران."، فصفة "الموت الأحمر" ومقولة "الأحمران/الأصفران" تنتج رؤية مكانية تؤسس لفضاء مغاير يجعل من سردية المائدة مثاراً لطرح فكرة الموت بأكثر من شكل.

فالأحمران المتمثلان باللحم والخمر فيما يتعلّق بالرجال يوازيان الأصفرين المتمثلين بالذهب والزعفران فيما يتعلّق بالنساء، صيغة سردية تطرح مجموعة من الدوال السردية التي تحيل على دلالات ذات صفة مكانية ظاهرة ومضمرة، وتعكس مفاهيم أخرى للمكان وظيفتها الأساسية العمل بقوة على تشكيل الفضاء.

إنّ الحساسية المكانية التي تعمل على تشكيل الفضاء السردي في سرديات المائدة تقدم مفهوماً جديداً للمكان، لا يتوقف عند حدود المكان الطبيعي والمباشر الذي يعلن عن مكانيته من لفظه؛ بل يتحول المكان الخاص في بناء الفضاء السردي إلى حالة مكانية متعلّقة بالحدث والشخصية وبقية عناصر التشكيل الأخرى، فصور المكان في هذا الخبر السردي الحكائي تتجلى في كل مفردة من مفرداته، وهو الأداة التي تسهم في بناء الفضاء الروائي حين يحيط بالمفهوم والمادة والموضوع والفكرة وكل التفاصيل بعناية واضحة.

يقدّم الراوي شخصية فريدة من شخصيات البخلاء في خبر سردي يحمل في طياته أفقاً مكانياً طبيعياً ومادياً وجسدياً في آن معاً، وهذه الشخصية التي يسميها الراوي "الغزال" ويصفها بأنها أعجوبة في البخل تعمل على صوغ فضاء سردي مكاني خاص، يستجيب بقوة وتماثل وسيرورة سردية لهذه النوعية الخاصة من البخل:-

**"حدّثني محمد بن حسان الأسود قال: أخبرني زكريا القطان قال: كان للغزال قطعة أرض قدّام حانوتي، فأكرى نصفها من سماك، يسقط عنه ما استطاع من مؤنة الكراء. قال: وكان الغزال أعجوبة في البخل وكان يجيء من منزله ومعه رغيف في كمّه، فكان أكثر دهره يأكله بلا أدم، فإذا أعيا عليه الأمر أخذ من ساكنه جوّافة بحية وأثبت عليها فلساً في حسابه، فإذا أراد أن يتغدّى أخذ الجوافة فمسحها على وجه الرغيف ثمّ عضّ عليه، وربما فتح بطن الجوافة فبطن جبينها وبطنها باللقمة بعد اللقمة، فإذا خاف أن ينهكها ذلك وينظّم بطنها طلب من ذلك السماك شيئا من ملح السمك فحشا جوفها لينفخها وليوهم أنّ هذا هو ملحها الذي ملحت به، ولربما غلبت شهوته فكدم طرف أنفها وأخذ من طرف الأرنبة ما يسيغ به**

**لقمته، وكان ذلك منه لا يكون إلا في آخرها لقمة ليطيب فمه بها، ثم يضعها في ناحية فإذا اشترى من امرأة غزلاً أدخل تلك الجوافة في ثمن الغزل من طريق إدخال العروض وحسبها عليها بفلس فيسترجع رأس المال ويفضل الأدم."**(١)

ينقسم الخبر السردي المشغول بالمكانية المتنوعة على أقسام عديدة تؤلّف الفضاء السردي الذي تعمل تحته الحكاية، ويأتي القسم الأول ذو الطبيعة المكانية التقليدية وهو ينقل الصورة العامة للخبر في ظل تواتر الحكاية "حدّثني محمد بن حسان الأسود قال: أخبرني زكريا القطان قال: كان للغزال قطعة أرض قدّام حانوتي، فأكرى نصفها من سماك، يسقط عنه ما استطاع من مؤنة الكراء. "، ليكون الفضاء السردي هنا خاصا بمحتوى مكاني خارجي وعام ويؤدي الدور المطلوب منه على مستوى بناء الفضاء السردي.

يبرز القسم الثاني من الخبر في تصوير شخصية "الغزال" بوصفه أعجوبة في البخل بما يأتيه من أعمال تحيل على بخل استثنائي وغير طبيعي، وما يترتب عليه من معطيات تتبيّن في هذا الخطاب "قال: وكان الغزال أعجوبة في البخل وكان يجيء من منزله ومعه رغيف في كمّه، فكان أكثر دهره يأكله بلا أدم"، فالصورة هنا مشغولة بفضاء سردي يتمحور حول الشخصية في ثباتها المكاني وسيرورتها السردية الخاصة.

ينتقل الخبر إلى القسم الثالث من الحكاية حين ينفتح النشاط السردي على فضاء مكاني جانبي للشخصية تحاول فيه حلّ مشكلتها مع المائدة "فإذا أعيا عليه الأمر أخذ من ساكنه جوّافة بحية وأثبت عليها فلساً في حسابه، فإذا أراد أن يتغدّى أخذ الجوافة فمسحها على وجه الرغيف ثمّ عضّ عليه، وربما فتح بطن الجوافة فبطن جبينها وبطنها باللقمة بعد اللقمة"، وهنا يتحول الفضاء السردي إلى رؤية مكانية تتجه صوب مفردة بعينها تسعى فيها الشخصية نحو أقصى درجة من درجات البخل.

يتواصل القسم الرابع من أقسام الخبر في مداولة تفاصيل الحكاية وإجراءاتها وحيثياتها ضمن مسارات أخرى تكشف عن مضاعفة طاقة البخل، على مستوى الفضاء العام لهذا الخبر ومكانيته السردية معاً "فإذا خاف أن ينهكها ذلك وينظّم بطنها طلب من ذلك السماك شيئا من ملح السمك فحشا جوفها لينفخها وليوهم أنّ هذا هو ملحها الذي ملحت به، ولربما غلبت شهوته فكدم طرف أنفها وأخذ من طرف الأرنبة ما يسيغ به لقمته"، وذلك للوصول إلى حالة تكون فيها الشخصية قد حازت على ما تريد بأصغر وأدنى وأقلّ ما يمكن من الاقتصار على الأشياء، ضمن فعالية سردية يكون المكان فيها هو المحور السردي الأساس.

---

(١) البخلاء : ١٢٠.

تنتهي حالة الخبر السردي في خاتمة المطاف إلى فعالية سردية تدرك الفضاء السردي داخل محدودية مكانية هائلة تتجلى في هذه الصورة: "وكان ذلك منه لا يكون إلا في آخرها لقمة ليطيب فمه بها، ثم يضعها في ناحية فإذا اشترى من امرأة غزلاً أدخل تلك الجوافة في ثمن الغزل من طريق إدخال العروض وحسبها عليها بفلس فيسترجع رأس المال ويفضل الأدم"، وصولاً إلى تجذير صورة عجيبة من صور البخل التي تجعل من المكان مثابة لبناء الفضاء السردي، حيث يرفد الصورة السردية بمزيد من طاقات الفضاء السردي الممكنة التي تجعل الحكاية أو الخبر في أوج قدرته على التمثيل والتعبير.

إنّ هذا الفضاء السردي الحاوي لهذه الحكاية الفريدة يستثمر مفردات المكان ويصوغها على نحو فريد من الأطراف السردية كلها، وذلك كي يرسم الراوي شكلاً آخر من أشكال البخل والبخلاء يضاف إلى رصيد الكتاب وينوّع مساراته ومحكياته، وهو يجعل من سرديات المائدة فضاء سرديا يسمح بإيراد كثير من هذه الصور بما يعزز الظاهرة ويكرّسها، ويجعل منها المحور السردي الأهم والأبرز في تشكيل الفضاء السردي المطلوب.

## المبحث الثاني

## مكان غير مسمّى (المضمر – المحتمل)

ينتقل مفهوم المكان السردي في قدرته على تشكيل الفضاء السردي في سرديات المائدة لدى الجاحظ في مرويات البخل والبخلاء إلى حالة مكانية كثيفة، من الصفة المكانية المجردة بأمكنة محددة وواضحة ومباشرة إلى مكانية حكائية أوسع من الحدود المكانية التقليدية، وهي صفة خاصة بهذه السرديات لها دلالة عميقة على انتماء هذه الحكايات والأخبار إلى عالم سردي شديد الخصوصية والفرادة والأهمية.

إذ لا يظهر المكان السردي دائما بوصفه المكاني الطبيعي والواقعي بل ينحاز أحيانا إلى المكان المضمر الذي تنتجه حالات سردية خاصة، ففي أحد الأخبار التي ينقلها الجاحظ عن البخل والبخلاء يعرض حكاية تكون فيها الأمكنة السردية رهينة لحركة الشخصيات، وتحاول أن تحوّل المكان إلى طاقة أكثر من كونه مساحة مكانية معلومة:-

"**عن العنبري وابن قطبة وفيلويه**

**حدّثني المكي فقال: كنت يوماً عند العنبري إذ جاءت جارية أمّه ومعها كوز ماء فقالت: (قالت أمك: بلغني أن عندك مزملة ويومنا حارّ، فابعث إليّ بشربة منها في هذا الكوز)، قال: (كذبت، أمي أعقل من أن تبعث بكوز فارغ وتردّه ملآن، اذهبي فاملئيه من ماء حبّكم وفرغيه في حبنا، ثم املئيه من ماء مزملتنا حتى يكون شيء بشيء).**

**قال المكي: فإذا هو يريد أن تدفع جوهراً بجوهر وعرضاً بعرض حتى لا تربح أمه إلا صرف ما بين العرضين الذي هو البرد والحرّ، فإما عدد الجواهر والأعراض فمثلاً بمثل.**"(١)

فالكوز بلا ماء وحين يمتلئ بالماء يشغل حيزاً في المكان ويؤلّف على هذا الأساس صورة خاصة للفضاء السردي في الحكاية، حيث تتحول عبر سلسلة من المرويات حكاية عن حكاية وراوٍ عن راوٍ" عن العنبري وابن قطبة وفيلويه/حدّثني المكي فقال:"، ثم تأتي الحكاية بعد ذلك لترسم صورة الفضاء السردي انطلاقاً من مثابة المكان، ومن خلال حوارية تكشف عن وجود مكانَين مختلفَين بحسب وجود الكوز الفارغ الذي يريد أن يمتلئ "كنت يوماً عند العنبري إذ جاءت جارية أمّه ومعها كوز ماء فقالت: (قالت أمك: بلغني أن عندك مزملة ويومنا حارّ، فابعث إليّ بشربة منها في هذا الكوز)"، حيث يقوم هذا الخطاب الخاص بالجارية على لسان الأم بنقل حاجة مكان الأم إلى أن يمتلئ الكوز بالماء.

لكنّ الجواب ينفي حاجة ذلك المكان إلى الماء من خلال محاولة إثبات رواية مناقضة تكشف كذب الجارية "قال: (كذبت، أمي أعقل من أن تبعث بكوز فارغ وتردّه ملآن، اذهبي فاملئيه من ماء حبّكم وفرغيه في حبنا، ثم املئيه من ماء مزملتنا حتى يكون شيء بشيء)،

(١) البخلاء : ١١٣.

حيث تتعادل الصورة المكانية ويكون الفضاء السردي على هذا النحو قادراً على تمثيل الرؤية من خلال حضور المكان الملحَق بالحكاية.

تنتهي الحكاية بفكرة يعرض فيها الراوي المعادلة المكانية المهيمنة على فضاء السرد المكاني على هذا النحو "قال المكي: فإذا هو يريد أن تدفع جوهراً بجوهر وعرضاً بعرض حتى لا تربح أمه إلا صرف ما بين العرضين الذي هو البرد والحرّ، فإما عدد الجواهر والأعراض فمثلاً بمثل"، ضمن إجراء شبه فلسفي يقارن بين العرض والجوهر بوصفهما مكوّنين للجسد المكاني الذي يؤلّف بدوره نموذجاً من نماذج الفضاء، وهو ما يجعل من هذه السرديات أحياناً تعبر من فوق محدودية التركيز على سرديات المائدة فقط، وتنفتح على مجالات معرفية تقود الفضاء السردي فيها إلى طاقة تعبيرية أوسع وأعمق وأكثر معرفية.

إنّ الفضاء السردي يقوم على أنواع مكانية عديدة تنتمي إلى فكرة المكان في العرض أحياناً وفي الجوهر أحياناً أخرى، على النحو الذي جاء به هذا الخبر السردي كي ينقل رؤية سردية خاصة بهذا المكوّن المكاني المهم.

تنفتح الطاقة المكانية من أجل تشكيل الفضاء السردي في حكايات البخلاء للجاحظ على مساحات وقيم مكانية متعددة، تتجاوز كثيراً مساحة المكان بألفاظه المكانية المعروفة ذات الطبيعة التقليدية، لأنّ المركز المكاني البؤري هو "المائدة" بما يجمعه هذا المركز من عناصر يمكنها أن تولّد الفعالية السردية داخل الفضاء السردي على أكمل وجه، فالمكان السردي الفضائي في هذه الحكايات والأخبار هو مكان مسمّى( مجرد حقيقي) ومكان محتمَل (مضمر)، ولا بدّ من معاينة المكان السردي على هذا الأساس لفهم طبيعة الحساسية المكانية: **"كان أبو عبد الرحمن يعجب بالرؤوس ويصفها، وكان لا يأكل اللحم إلا يوم أضحى أو من بقية أضحية أو يكون في عرس أو دعوة أو سفرة، وكان سمّى الرأس عرساً لما يجتمع فيه من الألوان الطيبة، وكان يسميه مرة الجامع ومرة الكامل، وكان يقول: الرأس شيء واحد والرأس فيه الدماغ على حدة، والعينان وطعمهما شيء على حدة، وفيه الشحمة التي بين أصل الأذن ومؤخّر العين وطعمها على حدة، على أنّ هذه الشحمة خاصّة أطيب من المخّ وأنعم من الزبد وأدسم من السلاء، وفي الرأس اللسان وطعمه شيء على حدة، وفيه الخيشوم والغضروف الذي في الخيشوم وطعمهما شيء على حدة، وفيه طعم الخدّين وطعمه على حدة، حتى يقسن أسقاطه الباقية ويقول: (الرأس سيّد البدن وإنّما القلب باب العقل، كما أن النفس هي المدركة والعين هي باب الألوان والنفس هي السامعة الذائقة،**

**وإنما الأنف والأذن بابان، ولولا العقل في الرأس لما ذهب العقل من الضربة تصيبه وفي الرأس الحواس الخمسة).**"[1]

تتعامل بعض حكايات البخلاء على صفة مكانية جسدية لها ظلال مكانية في مرجعيات الواقع، ومن هذه الحكايات ما يتوجّه إلى جزء معيّن ومحدّد من المكان الجسدي وتكبيره وتوسيعه سردياً "كان أبو عبد الرحمن يعجب بالرؤوس ويصفها"، فالرؤوس تمثل هنا محورا مكانياً تنطلق منه سردية المائدة لتشكل الفضاء السردي عبر طبقتها المكانية المتمركزة فيها.

ثم ما يلبث الراوي في هذا الإطار أن يقدم صورة للشخصية المركزية في هذا الخبر السردي، وهي شخصية لا يمكن لها أن تتجلى فضائياً على النحو المطلوب من دون حضور شكل معين من أشكال المكان، فتظهر الشخصية على لسان الراوي بهذه الصورة "وكان لا يأكل اللحم إلا يوم أضحى أو من بقية أضحية أو يكون في عرس أو دعوة أو سفرة، وكان سمّى الرأس عرساً لما يجتمع فيه من الألوان الطيبة"، فكل الألفاظ هنا تحيل على صفات مكانية تسهم في صناعة الفضاء السردي.

يتحول "الرأس" بمرجعيته المكانية الجسدية إلى بؤرة سردية تعطي للمائدة فكرة جوهرية خاصة تجعل من الرأس محوراً لهذه السردية "وكان يسميه مرة الجامع ومرة الكامل، وكان يقول: الرأس شيء واحد والرأس فيه الدماغ على حدة، والعينان وطعمهما شيء على حدة، وفيه الشحمة التي بين أصل الأذن ومؤخّر العين وطعمها على حدة، على أنّ هذه الشحمة خاصّة أطيب من المخّ وأنعم من الزبد وأدسم من السلاء، وفي الرأس اللسان وطعمه شيء على حدة، وفيه الخيشوم والغضروف الذي في الخيشوم وطعمهما شيء على حدة، وفيه طعم الخدّين وطعمه على حدة، حتى يقسن أسقاطه الباقية"، حيث تشتبك الحدود بين الأشياء التي يضمها الرأس في ظلّ معرفة وثيقة من هذا الآكل الذي يعرف كل جزء من الرأس بصفته الخاصة، وكل صفة بما تنطوي عليه من فائدة في ميدان سردية المائدة.

إذ لا شكّ أن هذه التفاصيل المتعددة والمتنوعة لصورة الرأس في علاقاته الجزئية تعطي للصفة المكانية جوهرا خاصا يقوم على معرفة وثيقة وأكيدة بالجزئيات، وتعمل على بناء الفضاء بطريقة تبدأ من أصغر التفاصيل المكانية الجسدية كي تنتهي إلى الصورة المكانية العامة، وتستكمل بذلك صورة الفضاء السردي بمساعدة عنصر المكان.

يسعى الراوي بعد ذلك إلى فعالية سردية تقوم على طبيعة بناء الفضاء الروائي بصيغته المكانية، كي يجعل من المكان الجسدي محورا لأمكنة أخرى حاضرة في المخيال الحكائي "ويقول: (الرأس سيّد البدن وإنّما القلب باب العقل، كما أن النفس هي المدركة والعين هي باب الألوان والنفس هي السامعة الذائقة، وإنما الأنف والأذن بابان، ولولا العقل في الرأس لما ذهب

(١) البخلاء : ١٠٧-١٠٨.

العقل من الضربة تصيبه وفي الرأس الحواس الخمسة"، بهذه التفاصيل الدقيقة التي لا تتوقف عند حدود ما تفضي إليه من مواد صالحة للأكل؛ بل تمتدّ إلى معرفة طبية وثقافية تعطي للأشياء قيمة مضافة تضاعف من قوة حضورها داخل الفضاء السردي.

يتحول "الرأس" في هذه السردية إلى كيان مكاني متكامل يحتوي تفاصيل كثيرة لا تقف عند حدّ، وتسهم جميعاً في جعل هذه السردية التي لها علاقة وثيقة بالمائدة وموضوعها الأساس "البخل والبخلاء" مثالاً للمكان العابر للتشكيل المكاني التقليدي، بحيث يقف الراوي في موقف الراصد والواصف والرائي بكل دقة وحضور ووضوح يجعل من المكان عاملا مهما من عوامل التأثير السردي.

تتنوّع أشكال سرديات المائدة في كتاب البخلاء بحسب طبيعة الحكاية التي يرويها الراوي أو الخبر السردي الذي ينقله عن أصناف البخل وأشكال البخلاء، ويتحوّل البخل إلى فضاء تعبيري وتشكيلي سردي من خلال المفردات المكانية التي يعتمد عليها داخل التشكيل، وتختلط أحياناً صفة البخل داخل هذا الفضاء العام بشدّة الفاقة وما ينطوي عليها من محدودية مكانية تنعكس على الفضاء السردي وممكناته التعبيرية:-

"**دخل علي الأعمى على يوسف بن كل خير وقد تغدى، فقال: يا جارية هاتي لأبي الحسن غداء)، قالت: (لم يبقَ عندنا شيء) قال: (هاتي-ويلك- ما كان من أبي الحسن حشمة)، ولم يشك عليّ أنه سيؤتي برغيف ملطّخ، وبرقاقة ملطخة وبسكر وبقية مرق، ويعرف وبفضله شواء وبقايا ما يفضل في الجامات والسكرجات، فجاءت بطبق ليس عليه إلا رغيف أرز قاحل لا شيء معه غيره، فلما وضعوا الخوان بين يديه فأجال يده فيه وهو أعمى فلم يقع إلا على ذلك الرغيف وقد علم أن قوله: (ليس فيه حشمة) لا يكون إلا مع القليل، فلم يظن أن الأمر بلغ ذلك فلمّا لم يجد غيره قال: (ويلكم ولا كل هذا بمرة رفعتم الحشمة كلها والكلام لم يقع إلا على هذا؟).**"[١]

يفضي الحوار المكاني وقد تمخّض عنه فضاء سردي شديد الاختزال بين أطراف الحوار حول المائدة، حيث إن المائدة في حالة من الاقتصاد الشديد الذي يناسب وضع الشخصية "الأعمى" ضمن علاقة مكانية لا تتجاوز محدودية الفضاء، فالصفة المكانية الحوارية تظهر من بداية الخبر بين أطراف الحوار "دخل علي الأعمى على يوسف بن كل خير وقد تغدى، فقال: يا جارية هاتي لأبي الحسن غداء)، قالت: (لم يبقَ عندنا شيء)"، حيث تأتي جملة "الجارية" كي تنفي وجود شيء يصلح لصناعة مائدة.

(١) البخلاء : ١٢٠.

تأتي مفردات المائدة بعد ذلك كي تكشف عن الفضاء المكاني الذاهب باتجاه المحدودية والاقتصاد والبخل ونفي الحضور المكاني للأشياء "قال: (هاتي–ويلك– ما كان من أبي الحسن حشمة)، ولم يشك عليّ أنه سيؤتي برغيف ملطّخ، وبرقاقة ملطخة وبسكر وبقية مرق، ويعرف وبفضله شواء وبقايا ما يفضل في الجامات والسكرجات، فجاءت بطبق ليس عليه إلا رغيف أرز قاحل لا شيء معه غيره"، بما يعني أن المكان هنا أسهم في صياغة الفضاء السردي للحكاية على نحو يقتصر على مستوى تعبيري وتشكيلي محدود جداً، ويضع مفردات الخبر السردي داخل دائرة سردية ضيقة تعبّر عن مكانية سردية غير منتجة.

تكتمل صورة الفضاء السردي انطلاقا من رؤية مكانية تتركز حول المائدة الفقيرة التي لا يمكن لها أن تنتج ما ترغب به شخصية "الأعمى" في سياق سردي مشتبك "فلما وضعوا الخوان بين يديه فأجال يده فيه وهو أعمى فلم يقع إلا على ذلك الرغيف وقد علم أن قوله: (ليس فيه حشمة) لا يكون إلا مع القليل، فلم يظن أن الأمر بلغ ذلك فلمّا لم يجد غيره قال: (ويلكم ولا كل هذا بمرة رفعتم الحشمة كلها والكلام لم يقع إلا على هذا"، إذ تعمل الصورة المكانية العامة للأشياء في هذا الخبر السردي على محاصرة الفضاء السردي داخل هذا الأفق الضيق، وتركيز أدوات السرد في بؤرة سردية لا تسمح بكثير من الانفتاح.

يبرز المكان الجسدي في خبر سردي آخر يكشف عن الخصوصية المكانية التي تؤلّف نموذج الفضاء السردي على وفق صيغة محدّدة، ضمن مسار سردي مكاني لا يتوانى عن تجذير المكانية بقوة ووضوح وشمول:–

**"وتعشّق واحدة فلم يزل يتبعها ويبكي بين يديها حتى رحمته وكانت مكثرة وكان مقلاً فاستهداها هرسية وقال: أنتم أحذف بها فلما كان بعد أيام تشهى عليها رؤوساً فلما كان بعد قليل طلب منها حيسة، فلما كان بعد ذلك تشهى عليها طفيشية، قالت المرأة: رأيت عشق الناس يكون في القلب وفي الكبد وفي الأحشاء، وعشقك أنت لا يجاوز معدتك."**[1]

إنّ موضوع الحكاية هو موضوع العشق مقترناً بالمائدة التي تفرض نمطاً سردياً خاصاً يترك مفارقة مفهومية بين المجالين، مجال العشق الذي يفترض التنزّه عن المتطلبات المادية المتعلقة بالمعدة، ومجال سردية المائدة التي تنفي تماماً أي حالة وجدانية أو عاطفية سوى تعشّق الأطعمة والمأكولات التي يفترض أن تحويها المائدة.

من هنا تتأسس صورة الفضاء السردي المطلوب انطلاقاً من هذه الرؤية المكانية القائمة على المفارقة والتعدّد والتنوّع السردي: "وتعشّق واحدة فلم يزل يتبعها ويبكي بين يديها حتى رحمته وكانت مكثرة وكان مقلاً فاستهداها هرسية وقال: أنتم أحذف بها فلما كان بعد أيام تشهى عليها رؤوساً فلما كان بعد قليل طلب منها حيسة، فلما كان بعد ذلك تشهى عليها

(١) البخلاء : ١٢٤–١٢٥.

طفيشية"، وما هذه التشهيات المتكررة سوى توكيد حي لضعف القوة العاطفية والوجدانية الضامنة لفكرة العشق، بما لا يعكس عاطفة حقيقية.

يظهر ردّ المرأة المعشوقة وقد زادت عليها طلبات العشيق لملء معدته بوصفها المكان الأكثر ضيقاً داخل هذا الفضاء السردي للحكاية "قالت المرأة: رأيت عشق الناس يكون في القلب وفي الكبد وفي الأحشاء، وعشقك أنت لا يجاوز معدتك"، ضمن تحديد لمفهوم العشق الذي تطرح فيه المرأة نماذج منه لا تتفق مع هذا النموذج الخاص الذي لا يتجاوز المعدة، ليكون المكان هنا مكاناً جسدياً يحاول الراوي فيه أن يشكّل الفضاء السردي للحكاية من خلاله، ويؤكد أيضاً الموقع الطبيعي المهم للمكان داخل فضاء المحكي السردي بما يجعل الرواية قادرة على تمثيل الرؤية وتفعيلها في مسارات مختلفة.

## الخاتمة

يؤكّد النص السردي على هذا النحو طبيعة التنوّع المكاني المدهش في حكايات البخلاء في سرديات المائدة، وبما يثري هذه المحكيات ويجعلها أكثر قدرة على الاحتواء السردي لقضايا تبدأ بالبخل والبخلاء لكنها تنتهي إلى الحياة بأوسع معانيها وأشكالها، وهذا هو جوهر الفعالية السردية التي يقوم عليها كتاب الجاحظ.

إنّ المكان على هذا النحو يعدّ من أبرز المكونات السردية للفضاء السردي حين ينجح الراوي في استثمار ممكناته وقضاياه ومفرداته، وهو ما جرى على نحو سليم في أكثر أخبار كتاب البخلاء وحكاياته المتنوعة التي أفضت إلى تشكيل فضاء سردي نوعي، تميّز به الجاحظ في كتابه هذا خلافاً لكتبه الأخرى المختلفة، فنلحظ أن المكان قُسم إلى مكان مجرد استطاع تقديمه لنا الجاحظ بصورة طبيعية كلاسيكية وهو ما يمثل المكان الحقيقي الواقعي ، فضلاً عن مكان ثانٍ امكننا تمييزه بصورة غير مباشرة تمثل بالمكان المضمر غير المسمّى ليكون بمثابة بوابة انطلاق للغوص في غمار الذات البشرية واستكشاف ممكناتها وخصوصياتها فيما يخص المكان وتقسيماته التخيلية.

**ثبت المصادر**


- الأنثى ومرايا النص –مقاربة تأويلية لبلاغة الخطاب النسوي المعاصر–، وجدان الصائغ، منشورات دار نينوى للنشر والتوزيع، ط١، دمشق، ١٩٩٩م.
- البخلاء، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: طه الجاجري، دار المعارف، ط٧ ، د.ت .
- بناء الرواية : دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ ، سيزا قاسم، دار التنوير، ط١ ، بيروت–لبنان، ١٩٨٥م .
- البناء الفني لرواية الحرب في العراق دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة، عبدالله ابراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ، بغداد، ١٩٨٨م .
- بنية الشكل الروائي (الفضاء، السرد، الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، بيروت، ١٩٩٠ م.
- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
- جماليات المكان ، جاستون باشلار، ترجمة : غالب هلسا، دار الجاحظ ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨٠ م .
- شعرية المكان في الرواية الجديدة – الخطاب الروائي لإدوارد الخراط إنموذجاً – خالد حسين حسين، منشورات الرياض (٨٣)، الرياض، ١٤٢١هـ .
- مضمرات النص والخطاب دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي، سليمان حسين، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م.
- من المكان الى المكان الروائي، خالد حسين حسين، مجلة المعرفة السورية، ع ٤٤٢، سنة ٢٠٠٠م .